الحس بالماضي والتأريخ عند سكان بلاد الرافدين

م.د. جمعة الطلبي
قسم الآثار/ كلية الآداب/ جامعة بغداد
م.م. علي هاشم
قسم التاريخ/ كلية التربية الأساسية/ الجامعة المستنصرية

..

مقدمة البحث

تعلم دراسة التاريخ الناس كيف يتعرفوا على سالف الأجداد، وأفكارهم، رغم آلاف من السنين، التي تفصل بين الطرفين. فالناس كما قال حكيم الصين كونفوشيوس منذ قديم الزمن يدرسون (الماضي) بهدف تطوير حياتهم على ضوء تجارب الذين سبقوهم [1]. وينطبق هذا على العراقيين القدامى الذين تناقلوا أخبار أسلافهم وأهم الأحداث وحاولوا تفسيرها أو على الأقل تبريرها. وكانوا مثل بقية الأقوام السالفة قد استخدموا النقل الشفوي للقصص التأريخية والملاحم البطولية وغيرها[2].

وتجلى الحس بأهمية الماضي والتأريخ عندهم من خلال الكتابات التأريخية التي كتبت للأجيال من أجل تنمية الحس التأريخي لديهم وتقدير واحترام منجزات الأسلاف. إذا كان قدامى العراقيين يعدون أنفسهم وارثين لتراث ماضٍ جميل، كما أنهم حرصوا على حفظ ما لديهم من كتابات، فكان ما تركوه لنا تراثاً غنياً زاخراً بالأصالة والعراقة.

لقد أدرك سكان بلاد الرافدين أن الماضي بعد دائم من أبعاد الوعي البشري، وإنه مكون حتمي من مكونات المؤسسات والقيم وغيرها من أنماط المجتمع البشري. وكان من دواعي الفخر لبعض الملوك العراقيين القدامى أنهم كانوا يجمعون المؤلفات النادرة وكانوا يبعثون الرسل من أجل الحصول عليها. وتتضح أهمية دراسة التأريخ لديهم من خلال اهتمامهم بالمكتبات وتنظيمها وفهرستها [3].

تضمنت كثير من النصوص الأدبية التي خلفها سكان بلاد الرافدين ما يمكن أن نسميه معلومات تأريخية، وأن بعض التواريخ تكشف عن مكانتها الأدبية بسبب تقديم الأصول التأريخية، إذ إنها تسجل مجموعة منتجة من الأحداث بأسلوب مقبول كانت قد حدثت في زمن بعيد[4].

وقد ترك سكان بلاد الرافدين كثير من النصوص الكتابية التي يمكن أن نتلمس في ثناياها ما يشير إلى التدوين التأريخي أهمها; قوائم الملوك السومرية والبابلية والآشورية، التي ضمت إشارات تتعلق بأحداث بارزة عدا تلك الإشارات عن مدة الحكم والتقسيم إلى سلالات حاكمة، فضلاً عن شمولها على أسماء كبار الموظفين أيضاً[5]. كما وصلتنا مجموعة من الكتابات التي تظهر الحس التأريخي نظراً لما تحتويه من أحداث تأريخية هامة متسلسلة زمنياً، وهذه الكتابات التي عرفت بكتب الأخبار كانت أكثر تطوراً من مصادر كتابة التأريخ الأخرى. وكتبت سير أشخاص مشاهير عاشوا في أزمنة سابق من أجل حفظ تراث الأجداد والاهتمام به، وهي غالباً ما تعكس الخطر الدائم الذي تتعرض له شعوب سهول بلاد الرافدين من قبل المجاميع القادمة من الجبال القريبة الواقعة في المناطق المجاورة[6].

الكتابة وعاء التأريخ

إن إبداع نظم الكتابة هو واحد من أهم الإبداعات في تأريخ البشرية. ويسجل لقدامى سكان بلاد الرافدين السبق في كثير من الميادين الحضارية، ولعل ابتكار الكتابة كان مفخرة هذه البلاد وسكانها. إذ تعد الكتابة ابتكاراً وتقدماً حضارياً كبيراً وحقيقياً إذا ما قيس بأي اختراعٍ أو ابتكارٍ آخر. إذ تمس الكتابة الحياة اليومية في جميع نقاطها ومفاصلها. كما أنها أسهمت في الإسراع بالعمليات الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية وحتى في عمليات الإتقان الصناعي إلى حد لم يلحظ في مراحل سابقة. فقد وضعت وعلى حين غرة حلولاً إدارية للمشكلات الإدارية لدى أصحاب الملكيات الخاصة والعامة، التي استلهمت سلسلة كاملة من التجارب الجديدة في إدارة التنظيم البشري على النطاق الواسع والضيق[7].

كما خلق هذا الابتكار تأثيراً هائلاً على سكان البلاد المجاورة، فقد استعاروا الخط المسماري كما حدث مع الحثيين والميتانيين، بينما تقبل العيلاميون مبادئ الكتابة الرافدينية وإن اصطفوا لأنفسهم الخط الخاص بهم[8].

كان أصل الكتابة متواضعاً ولم تظهر في البداية لخدمة الدين إلا بشكلٍ غير مباشر ولا لتدوين أو نقل الأحداث التاريخية أو الكتابة الأدبية أو الأفكار أو الأفكار الإنسانية، بل هي مجرد وسيلة لتدوين حسابات المعابد المملة، لذلك فأن الكتابة كانت طريقة لـ(مسك السجلات أو الدفاتر) لذلك فأن أقدم النصوص المعروفة هي قوائم بالدواجن والمعدات الزراعية وغيرها. فقد كانت البداية متواضعة تمثلت بكتل طينية يتم خدشها للتعبير عن أعداد الحيوانات مثلاً، ثم نقشها بنقاط أو خطوط للدلالة على الأعداد. بعدها توصل السومريون إلى فكرة إبداع مئات من العلامات التصورية المختصرة أحياناً وعلامات معبرة عن الأعداد والكميات يتم

نقشها على الرقم الطينية بأداة تشبه القلم. ولم تكن تلك العلامات تلبي مجرد حاجة آنية، بل كانت تؤدي غرضاً توثيقياً طويل الأمد أيضاً. ثم ألحقوا بها بعد زمن قصير علامات محدودة تعبر عن بعض الصفات، والأفعال والمفاهيم المجردة. تعرضت العلامات التصويرية مع مرور الزمن للتبسيط أكثر فأكثر. وصارت أشكال العلامات غالباً هندسية مجردة، كما تمت الاستعاضة عن الخطوط المنحنية التي يصعب رسمها على الطين بخطوط مستقيمة [9].

ومع ابتكار الكتابة عمل بعض الكتبة على تدوين بعض أعمال الحكام مثل بناء المعابد وتقديم الهدايا النذرية، على الرغم من أن النصوص الموغلة في القدم كانت مختصرة ذات قيمة تأريخية قليلة [10]. استعملت الكتابة فيما بعد لإيصال المعلومات على مستوى دقيق، كما سنلاحظ ذلك في المراسلات والمراسيم الملكية، فضلاً عن دورها في إيجاد حلول للمشكلات الإدارية، كما أنها أسهمت في إدارة التنظيم البشري. والكتابة هي أحد أهم الأدوات والوسائل لدراسة ماضي بلاد الرافدين. إذ تشكل الوثائق الكتابية لقى أثرية تتجسد فيها خلفيات اجتماعية وطبيعية، وإن القيمة الحقيقية لها تكمن في القدرة على استخلاص المعلومات من خلال دراستها كما هو الحال تماماً مع اللقى الأثرية الأخرى، والأهم من كل ما تقدم فإن القيمة الخاصة للوثائق تكمن في جوهر فحواها [11]. تألفت هذه الوثائق الكتابية من ألواح طينية وحجرية وآجر وعتبات أبواب وأوانٍ ومزهريات، ومسامير ومخاريط وأساطين ورؤوس هراوات وأسلحة وصفائح من المعدن أو الحجر أو الطين، ومنحوتات صغيرة من الحجر والمعدن [12]. حفلت بعض هذه الوثائق الكتابية بنصوص وصيغ يمكن أن تندرج تحت مسمى (التأريخ)، إذ تشير تلك النصوص إلى أحداث فعلية أكثر من أن تكون تسجيل لتلك الأحداث فحسب. كتبت هذه النصوص بأساليب أدبية تقدم لسبب أو لآخر ما يصطلح عليه بالمعلومات التأريخية[13].

التدوين عند قدامى العراقيين

على الرغم من أن أغلب الباحثين يشيروا إلى أن العراقيين القدامى لم يكتبوا تأريخاً بالمعنى المقبول عامة لهذه الكلمة، أي التأريخ الذي هو عبارة عن أساليب موضحة ومبادئ أساسية. يشير السيد كريمر إلى ذلك بالقول: إن المتعلمين ورجال الأدب السومريين لم يمتلكوا العدة العقلية اللازمة للتعريف والتعميم ولا طريقة الفهم التطورية الضرورية للتقييم والتفسير التأريخي [14]. لكنهم يؤكدوا أيضاً أن الناس في بلاد الرافدين وقبل

اختراع الكتابة في النصف الثاني من الألف الرابع ق.م، كانوا يتبنون الرواية الشفهية في نقل أخبار أسلافهم الماضين والحوادث الماضية. فقد سعى كل ملوك وحكام العراق القديم إلى تخليد ذكراهم بجملة أعمال كتشييد المعابد والقصور وفتح القنوات وبناء السدود وإقامة الحصون والفتوحات العسكرية.... وغيرها، كي تبقى في التاريخ خالدة [15]. ويلاحظ أنهم اهتموا بجمع وتدوين أخبار مشاهير الشخصيات التاريخية ممن عاشوا قبلهم بقرون عديدة، ولا شك أن إقدامهم على تدوين مثل هذه السير الشخصية كان بدوافع ذاتية هي حفظ تأريخ ومآثر السلف. كذلك دونوا بعض الأحداث المهمة كالحرب بين مدينتي لجش وأوما، التي استمرت ما يزيد على قرن من الزمن وأبرمت معاهدات بين الطرفين وشقت الخنادق وبنيت الأسوار الحدودية ونصبت المسلات، وشيدت معابد الآلهة. كما أبرزوا بعض أخبار الحروب النفسية ما بين الشعوب، كالحرب ما بين مدينة الوركاء ومدينة أرتا الإيرانية [16] . وأظهروا حجم المعاناة النفسية التي يعانيها الأفراد عندما تلقي مدنهم ومعابدهم الدمار والخراب على أيدي الأقوام الأجنبية، مثل دمار أور[17].إن نصوصاً من هذا النوع تؤشر حساً بالماضي والتأريخ لدى سكان بلاد الرافدين، وربما يعزز هذا شعور العراقيين القدامى بأنهم ليسوا محدثين في الحضارة، بل وارثين لتراث ماضٍ مجيد، وأنهم أول المبتكرين لفكرة مرور الإنسان في عصر ذهبي، كما يرى السيد سارتون، معتمداً في ذلك على ما ورد في أحد الأساطير الي يرد فيها : في تلك الأيام التي لم تكن الحية في الوجود، ولم يكن العقرب، ولم يوجد الضبع ولا الأسد، ولم يكن الكلب الوحشي ولا الذئب، لم يكن خوف ولا هلع، ولم يكن للإنسان من غريم[18].

مصادر كتابة التأريخ عند العراقيين القدامى

من المعروف أن الناس، والمؤرخين في مقدمتهم، يوجهون عنايتهم إلى الوقائع الحربية، والتقلبات السياسية، ويعدونها لب الماضي وجوهره، الجدير بالاعتبار. وهكذا فعل أسلافنا من سكان بلاد الرافدين، إذ كانت كتابة التأريخ من أبرز نتاجاتهم الفكرية. ومع إيماننا بأن منهجاً علمياً في تفسير وتقييم الحدث التأريخي لا نجده إلا في وقت متأخر إلا أن سكان بلاد الرافدين القدامى كانوا السباقين في كثير من مجالات العلم والمعرفة وبضمنها (الحس التأريخي)، أي الاهتمام بالإحداث المهمة ومحاولة تفسيرها، ويمكن تلمس ذلك في ثنايا سطور ملحمة جلجامش على سبيل المثال :

(هو الذي رأى المنبع، أساس البلاد،

هو الذي عرف [.....] وفهم كل شيء

كلكامش رأى المنبع، أساس البلاد،

مكتمل الحكمة، الذي فهم كل شيء

رأى المكنوز وفتح المكتوم،

حمل فكر ما قبل الطوفان،

سلك الدرب الطويل متعباً ومستريحاً،

نقش على مسلةٍ كل المشقة،

بنى سور مدينة أوروك- ذات الأسوار....).

ويرد في موضع آخر :

(أنشد صندوق الألواح، الذي هو من خشب الأرز،

افتح مشبكه البرونزي،

حرك باب خزانته،

وأرفع لوح اللازورد وأقرأ

(فيه) عن كل ما خاض كلكامش نفسه من مصاعب)[19] .

خلفت لنا الكتابات العراقية القديمة مجموعة من الوثائق الكتابية التي يمكن أن تلقي ضوءاً على فهم العراقيين القدامى للتأريخ. لقد توافرت لديهم قاعدة مناسبة وخصبة لظهور علم يهتم بالتأريخ. وهو العلم الذي برزت ضرورته بوضوح لدى شعوب عدة في ذلك الماضي السحيق. انعكست هذه الضرورة لدى السومريين مثلاً في إبداع قائمة الملوك السومرية المصنفة في عمود واحد. عموماً تمثل جداول الملوك وخاصة قائمة الملوك السومرية، واحدة من أبرز المصادر التي عرفتنا بفهم سكان بلاد الرافدين القدامى للتأريخ. وعلى الرغم من أن

هذه الجداول غير كاملة من عدة وجوه، إلا أنها كانت مع ذلك تمثل جداول بالسلالات، وإن كانت ثمة مخاطر تحيق بكل محاولة الأبحاث أبعد مما يجب، وتنتج هذه المخاطر من عدم امكان الوثوق بمعرفة الكتاب عن العصور المبكرة جداً[20].

إن هذه الوثيقة الفريدة هي خليط بين الحقيقة والخيال، وغالباً ما يكون من الصعب الجزم متى تبدأ الحقيقة ومتى ينتهي الخيال، وكان مؤلفها على ما يبدو تحت تأثير الاعتقاد بأن جميع السلالات التي وضعها في هذه الجداول قامت الواحدة بعد الأخرى في تتابع ثابت. كما أنها أغفلت ذكر بعض السلالات، ربما لأسباب سياسية، وأن أعداد السنوات المقدمة فيها ليست صحيحة حتى التي تعود إلى المدة اللاحقة لأواسط الألف الثالث ق.م. عموماً فإن ثبت الملوك يزودنا، على كل هناته وعيوبه، بإطار تأريخي لا تقدر قيمته إذا استخدم بحذر وتفهم[21]. فهذه الجداول لا تخلوا من الإشارة إلى أحداث تأريخية وبخاصة تلك الأحداث المتعلقة بالحروب والانتصارات. فكان ينص في قائمة الملوك السومرية مثلاً على ضرب مدينة ما أو بلد ما بالسلاح ونقل الملوكية إلى مدينة أو بلد آخر. وعلى الرغم من اعتقاد بعض الباحثين أن قدامى سكان بلاد الرافدين لم يعرفوا حدثاً فاصلاً يمكن من خلاله معرفة مدى عمق الامتداد التأريخي لهذا البلد، لكن يمكن ملاحظة أن قوائم وإثباتات الملوك أشارت إلى حادثة الطوفان كحدث فاصل ما بين السلالات التي حكمت قبل حدوثه والسلالات التي جاءت بعد[22].

كما تعد الكتابات الرسمية، وهي مدونات الملوك والحكام والأمراء التي كتبت لتخليد أعمالهم ومنجزاتهم العمرانية والحربية والدينية التي قاموا بها أثناء مدة حكمهم، واحدة من أهم النصوص الكتابية الي يمكن أن نتلمس من خلالها الحس بالماضي والتأريخ عند قدامى سكان بلاد الرافدين . وتشمل الكتابات النذرية والتذكارية، فضلاً عن الكتابات الرسمية الدعائية. منها ما كتب على الألواح والمخاريط والتماثيل والمسلات والآنية وغيرها من الأشياء التذكارية. إن هذه الكتابات هي أقرب ما يمكن أن نسميه بالتأريخ، إلا أن الحوادث الواردة فيها ذكرت على أنها نتاج عرضي بالنسبة للغرض الأساسي من كتابتها، وذلك هو التماس رضا الآلهة والحظوة عنها. بعض من هذه الوثائق تروي لنا أحداث سابقة لزمن كتابتها فتكشف لنا مثل هذه الوثائق عن إدراك أهمية التاريخ [23].

إذ كان لدى سكان العراق القدامى سجل تأريخي عن العصور المبكرة، وخاصة عندما يريدوا أن يتهربوا من الوقائع المعاصرة. فنجد أن هناك عدداً من النسخ التي تحتوي على نصوص أقدم بكثير من زمن تدوينها، إذ شرع الكتاب على جمع النصوص، مثل نصوص معبد (التومال) في مدينة نفر، لكي يصوروا اعتقادهم بأن

الحكام الأتقياء يحصلون على استحسان الآلهة، لذا عمل الكتاب على إعادة نسخ رسائل تعود لملوك بارزين بمواقفهم المثيرة سواء أكانت الرسائل حقيقة أو من اختلاقهم [24].

إن نص بناء معبد(التومال) يعد وثيقة تأريخية مهمة، فهو نص مكرس بالدرجة الأولى بإعادة بناء هذا المعبد المخصص للإلهة ننليل في مدينة نفر، كما أنه يعرض بناء أجزاء مختلفة من معبد أنليل في المدينة نفسها[25]. إن هذه الوثيقة تعرض بوضوح شعور المؤرخ العراقي القديم بالفكرة الرمزية للتأريخ، من خلال تدوين أخبار بناء المعابد وعمليات تجديدها المستمرة وفق المخطط نفسه ولطبقات عديدة، مع ذكر من قام بذلك من الملوك والحكام، كما هو الحال في تجديد معبد الإلهة ننليل زوجة الإله أنليل في مدينة نفر كما أشرنا[26].

تبدو فكرة كتابة التأريخ أكثر وضوحاً عند السومريين وفي عصر مبكر نسبياً وذلك خلال النص السومري الشهير الذي خلفه الأمير اينتمينا أحد أمراء سلالة لكش الأولى في حدود القرن الخامس والعشرون قبل الميلاد، الذي يذكر فيه تفاصيل النزاعات والحروب بين مدينته ومدينة أوما المجاورة. وفيه لا يقتصر على ذكر الأحداث المعاصرة له بل أنه يستقصي جذوره البعيدة التي تعود إلى عدة أجيال سابقة، مع الإشارة إلى المحاولات التي جرت لإنهائه[27].

ولا تقتصر أهمية هذا النص في كونه أقدم مثال على واضح على كتابة التاريخ فحسب لكنه يتميز على غيره من النصوص التأريخية المبكرة بالإشارة إلى مسألتين مهمتين تتعلقان بتنظيم العلاقات بين دويلات المدن السومرية في عصر السلالات هما: التحكيم كمبدأ بين الأطراف المتنازعة، إذ نجد أن ميسيلم ملك كيش قام بقياس مساحة الحقول والأراضي المتنازع حولها، ومن ثم ثبت الحدود الفاصلة بواسطة مسلات من الحجر، واستحداث فكرة الأرض الحرام أو مبدأ (الأرض التي لا تعود إلى أي ملك)، على حد تعبير النص السومري، لإنهاء الصدامات بين الدويلات المتنازعة[28] .

يحتوي هذا النص على كثير من الإشارات التأريخية، فنعرف منه كيف أن بعض الدول قد حلت مشاكلها الاقتصادية والحدودية، كالحرب ما بين لجش وأوما، التي استمرت ما يزيد على قرن من الزمن وأبرمت معاهدات بين الطرفين وشقت الخنادق وبنيت الأسوار الحدودية ونصبت المسلات، وشيدت معابد الآلهة كما أوردنا[29].

ويتجلى اهتمام الكتاب والمؤرخين بالشخصيات التأريخية التي برزت على مسرح الأحداث من خلال

تأليف(الملاحم التأريخية) التي تجسد مآثر وبطولات مشاهير الملوك وتتحدث عن شجاعتهم في مواجهة التحديات التي تعرضت لها البلاد. أغلب هذه الملاحم أو القصص التأريخية مكتوبة باللغة السومرية ويعود زمن تأليفها إلى مطلع الألف الثاني ق.م. مثل أنمركار وحاكم أرتا وملاحم تدور حول البطل كلكامش مثل قصته مع ملك كيش أجا، وكلكامش وأرض الحياة[30].

كما انعكس الاهتمام بملوك معينين – بشكل خاص– في نظم قصائد شعرية بطولية، من ضمنها تلك التي نظمت حول الملكين الأكديين : سرجون ونرام سين. وقد لقيت إعجاباً شديداً بها، وأعيد نظمها وتنقيحها مراراً [31].

ومما لا شك فيه أن الإنسان قبل اختراع الكتابة في النصف الثاني من الألف الرابع ق.م، كانت لديه الروايات الشفهية التي اعتمدها في نقل أخبار الماضين والحوادث الماضية كما أشرنا.

وقد عمل أغلب ملوك وحكام العراق القديم إلى تخليد ذكراهم خلال أعمالهم التي أنجزوها مثل تشييد المعابد والقصور وفتح القنوات وبناء السدود وإقامة الحصون والفتوحات العسكرية وغيرها، كي تبقى خالدة على مر العصور. فكان أن تضمنت النصوص المسمارية الأولى ملخصاً بأعمال هؤلاء الملوك العسكرية كمدخل للنصوص البنائية، كما في نصوص أورنانشة مؤسس سلالة لكش الأولى، الذي كان يذكر في نصوص أخرى اهتمامه بالجانب الاقتصادي في بلاد سومر كذكره مخازن الشعير مثلاً، ولكن تبقى أولى النصوص التأريخية هي نصوص أياناتم (2454–2425 ق.م)، ومنها نص مسلة العقبان، عندما تصدى للأعداء وطردهم من حقل (كو– أيدنا) زمن ملكهم (أينا– كلي) [32]. وتظهر بعض النصوص ذات الطبيعة التأريخية مقدار المعاناة النفسية التي يعانيها الأفراد عندما تتعرض مدنهم ومعابدهم إلى الدمار والخراب على أيدي الأقوام الأجنبية، كما ورد ذلك في مرثية أكد وأور [33]. كما صورت بعض النصوص المصائب التي كانت تشهدها البلاد، كالمصائب التي حلت بها خلال غزوات الجيوش العيلامية، وغالباً ما نسبت أسبابها إلى غضب الآلهة[34].

وتقدم الحوليات مثل الكتابات الملكية معلومات قيمة عن تأريخ السلف ومنجزاتهم في العصور القديمة. ولكنها لا تمثل بالضرورة تدويناً للتأريخ وفقاً للمعايير العلمية المتعارف عليها، ومن أبرزها النقد والتحليل[35]. وتسجل هذ الحوليات الملكية الوقائع البارزة حسب التسلسل الزمني التأريخي، لهذا نالت الحملات العسكرية في بلاد آشور المكان الأفضل في سجل الوقائع. ذلك لأن الحروب كانت صناعة آشورية ثابتة. أما في بلاد

بابل فإن الأعمال العمرانية نالت المكانة الأولى. تحفل النصوص الحربية الآشورية بوصف مراحل الغزو لمنطقة معينة، ويحمل بعضها تقارير موجزة عن الحملات العسكرية [36].

هنا لا من الإشارة إلى أن مؤلفي الحوليات كانوا من موظفي القصر، الذين يرافقون الملك في غزواته، فضلاً عن كونهم من المتمرسين في فنون اللغة والكتابة [37]. لذا فإن هذه الحوليات غالباً ما تعرض تقارير موجزة عن أحداث مهمة من زوايا معينة حدثت خلال عهود ملوك معينين مختارين. لذلك لا يمكن الاعتماد تماماً على هذه الوثائق، لا لأنها متهمة بالمبالغة في وصف بعض الانتصارات ولكن أيضاً لأن لم تذكر ولا مرة واحدة هزيمة لأي ملك في أية معركة، كما هو حال الحوليات الآشورية التي لم تسجل مطلقاً أية هزيمة لحقت بالآشوريين[38] .

فثمة حولية من القرن الثامن ق.م تبحث في الصراعات بين آشور وبابل منذ نحو 1500 ق.م، تظهر فيها بوضوح نزعة عدائية قوية تجاه البابليين، وثمة أعمال مشابهة في بلاد بابل أيضاً. إذ تصور الحوليات البابلية من القرن الثامن ق.م نفسه، وبهيئة تقارير موجزة أهم الأحداث التي حصلت خلال عهد كل ملك من الملوك، وتطورت فيما بعد إلى الحديث بإيجاز أو بالتفصيل عن أحداث كل سنة. ويمكن أحياناً تلمس النزعات السياسية الكامنة في تلك التقارير. اختفت في هذه الأعمال الملامح التي تذكر بالأسلوب الفهرسي (القوائم). وهي لا تقدم لعملية كتابة التأريخ الحقيقية سوى المادة الأولية. كما يلاحظ أن اليوميات الفلكية صارت منذ القرن السابع ق.م، تتضمن أخباراً تاريخية موجزة [39] .

لم يكتف بعض الملوك بإعادة البناء لمعبد ما بل التحري عن أسسه الأولى (تأريخه) ومعرفة ما أصابه من تجديد على أيدي الملوك السابقين له. عموماً يبدو أن لبعض الملوك حساً تأريخياً واضحاً، إذ يخبرنا الملك آشور بانيبال عن أحداث تسبقه بأكثر من ألف عام، فيذكر كيف أن الإلهة عشتار التي كانت غاضبة لمدة 1635 سنة، نتيجة اقامتها الإجبارية في بلاد عيلام، فطلبت منه إعادتها إلى مكانها الأصلي[40].

وكان ولع ملوك العراق القديم بالتأريخ كبيراً حتى أن سرجون الثاني الأشوري (722–705 ق.م) تشبه بسرجون الأكدي (2371–2316 ق.م)، وتسمى بأسماء الملك الحق أو الصادق، وشيد عاصمة على غرار العاصمة الأكدية دعاها شروكين. كما أن سنحاريب (704–681 ق.م)، ربط نسبه بكلكامش ملك الوركاء (2400 ق.م)، وصديقه أنكيدو وحارس الغابة خمبابا. أما أسرحدون (681–669 ق.م)، وأشور بانيبال (668–627 ق.م)، فقد اهتما بالماضي، وجمعا تراثه، وفعل ذلك أيضاً شمش–شم– أوكن (668–648

ق.م)، حاكم بابل في عهد أخيه (آشوربانيبال)، ولا يقل عنهم الملك البابلي نبونائيد(556–539 ق.م) الذي أقام متحفاً في أور[40] .

وهناك نصوص كتابية تشير إلى موجز تأريخ المنازعات على الحدود بين القوتين الأشورية والبابلية، وتذكر هذه الوثيقة كأساس لإقرار السلام، تعرف بإثبات الملوك المتعاصرين، وهي عبارة عن نوع من جداول الملوك، ولكنه أكثر تطوراً منها، لأنه يستعرض الأحداث المهمة التي وقعت في بلاد آشور، وما يعاصرها من أحداث في بلاد بابل[41].

تعد الرسائل من أبرز النصوص التي ترينا بوضوح اهتمام العراقيين بالتأريخ، إذ كان سكان العراق القديم من كتاب الرسائل الذين لا يكلون ولا يملون. وهي في جلها تنصب على قضايا الأعمال، التجارية منها خاصة، ولكن هناك كثير من هذا الرسائل تلقي ضوءاً على الحروب والمعارك، وهذه الرسائل عادة موجهة إلى الآلهة، وهي ذات صبغة دينية، إلا أنها عادة ما تخبرنا بأحداث تأريخية كاملة، مثل رسالة سرجون الثاني إلى الإله آشور، التي أمدتنا بشكل كامل بأحداث الحملة الثامنة له [42].

كما خلف لنا العراقيين القدامى نوعاً من المدونات التأريخية التي تعرف بكتب الأخبار، وهي أكثر تطوراً من مصادر كتابة التأريخ الأخرى، التي سبق ذكرها، لما تضمنته من أحداث تأريخية هامة متسلسلة زمنياً. يعود قسم منها لحقب زمنية تفصلها عنها حوالي 700 عام، وتذكر كتب الأخبار الأحداث عام بعد عام على غرار ما عمله الكتاب والمؤرخون الإغريق والرومان والعرب[43]. وقد غطت كتب الأخبار هذه مرحلتين زمنيتين من تأريخ بلاد الرافدين، الأولى تبدأ من القرن الثامن ق.م، من عهد نابو – ناصر (747–734 ق.م) إلى حكم شمش – شم – أوكن (668–648 ق.م)، بينما تبدأ المرحلة الثانية من سقوط بابل في عام 539 ق.م، حتى القرن الثالث ق.م. ولم تقتصر كتب الأخبار على ذكر أحداث معاصرة فقط وإنما تناولت أخبار الماضين، كالإشارة إلى أخبار سرجون الأكدي وخلفائه، وكيفية وصوله إلى العرش وتأسيس السلالة الأكدية، بمؤازرة الإلهة عشتا، مع الإشارة إلى حملاته الحربية ضد كزالو وسوبارتو وعبوره البحر من جهة الشرق، واخضاعه للبلاد كاملة من جهة الغرب، فضلاً عن انجازه لقصور أبنائه وتشييده للعاصمة اكد [44].

كما تتوضح أهمية دراسة التأريخ من قبل العراقيين القدامى من خلال اهتمامهم بالمكتبات والأرشيفات وتنظيمها وفهرستها، فالملك آشور بانيبال صاحب أكبر مكتبة معروفة أرسل إلى عماله على بعض المدن أن يرسلوا إليه كل ما هو مفيد من نصوص قديمة دينية أو كتابات على الحجر أو ما ينفعه في حكمه أو شؤون

قصره, ومكتبته ذاتها حفظت لنا استنساخات من نصوص سومرية وأكدية وبابلية قديمة وذات مواضيع متنوعة[45]. وما عثر عليه في مكتبة بيت الكاهن في آشور من استنساخات لقوانين حمورابي يمكن إيرادها كمثال آخر على اهتمام شريحة أخرى من المجتمع العراقي القديم بهذا الحس التأريخي [46] .

الخاتمة

ربما ليس هناك قصدية لنشر الأحداث فيما تحتويه الوثائق الكتابية الرافدينية، ومن ثم ليس هناك ما يؤشر الصفة التأريخية عليها، أي تسجيل أحداث الماضي وروايتها. لكن هذه الوثائق حفلت بكثير من الأمثلة التي تؤشر الحس التأريخي لديهم. إذا تضمنت كثير من هذه النصوص إشارات إلى أحداث تأريخية وبخاصة تلك الأحداث التي تتعلق بالحروب والانتصارات. وقد جاءت هذه الإشارات التأريخية في كثير من الوثائق الكتابية التي خلفها سكان بلاد الرافدين من مثل : الكتابات الرسمية(الملكية) وإثبات الملوك وتشمل; إثبات الملوك السومرية والبابلية والآشورية وإثبات الملوك المتعاصرين، وهناك الرسائل والمعاهدات والحوليات وكتب الأخبار البابلية والسير الشخصية ونصوص الفأل والتنبؤ وغيرها. اعتمد قدامى العراقيون أساليب متنوعة في تثبيت التواريخ منها; اعتماد الحوادث المشهورة، فقد أعطى سكان بلاد الرافدين اسماً لكل سنة من خلال حادثة وقعت في السنة التي سبقتها أو في بداية السنة الجديدة، وذلك بدءاً من العصر الأكدي وحتى الكشي، باستثناء مدة قصيرة استعملت فيها طريقة التأريخ بسني حكم الملوك في سلالة لجش الأولى في منتصف الألف الثالث ق.م، وهي وسيلة مهمة في تثبيت تأريخ الحوادث [47]. وشكلت قوائم اللیهو الآشورية إحدى الوسائل التي اتبعها الآشوريين، وهي طريقة مغايرة لسابقتها، إذ قاموا بتسميتها باسم من يشغل وظيفة اللیهو في البلاط الآشوري. وتعني هذه الطريقة (الدورة الخاصة بحكم كل ملك). إذ كانوا يخصصون السنة الأولى والثانية إلى الملك لتولي وظيفة اللیهو ورعاية احتفالات رأس السنة التي تبدأ في نيسان، أما السنوات اللاحقة لوظيفة اللیهو فكان يشغلها كبار موظفي الدولة الذين يأتون بالتتابع[48].

وحفل تاريخ بلاد الرافدين بظهور بعض المؤرخين الذين حاولوا منذ القدم تفسير أصول الأشياء وأصل الإنسان والحياة والتطور الحضاري بوجه عام. ويمكن عد حاكم مدينة لجش أنتمينا أقدم مؤرخ. ويعد المؤرخ البابلي برعوشا الذي عاصر الإسكندر المقدوني (331–323 ق.م)، وهو أحد كهنة معبد مردوخ في بابل، ولا يعرف اسمه الحقيقي ولكنه ورد بالمصادر الإغريقية بصيغة (بروسس)، يعد من أوائل المؤرخين الذين اعتمدوا أسلوب البحث العلمي التاريخي في كتابة التأريخ. وقد ألف كتاباً باللغة اليونانية في ثلاثة مجلدات

ضمنه تأريخ بلاد بابل منذ الخليقة وأحداث الطوفان حتى حكم الإسكندر(336-323 ق.م). وقصد منه أن يقدم إلى اليونان وملوكهم تأريخ بلاده العريق حتى سنة 275 ق.م[49].

إن كل ما عرضناه، وهو فيض من غيض، يشير بوضوح إلى أن أسساً مهمة يقوم عليها التأريخ قد وضعت في حضارة بلاد الرافدين، يأتي في مقدمتها ما يمكن أن يطلق عليه مصطلح الحس بأهمية التأريخ الذي يظهر جلياً في اهتمام مثقفي العراق القديم بأحداث الماضي وتدوينها. ويمكن عد هذا الحس التأريخي من بين أهم العناصر في تراث حضارة بلاد الرافدين. لأن أهم ما يميز النوع الإنساني توارث الأجيال المختلفة خبرات الماضي وتجاربه. وكان ذلك يتم بالرواية الشفهية قبل ظهور التدوين، فضلاً عن ذلك نجد في تدوين التأريخ في العراق بدايات اهتمام الإنسان في تتبع أصول الأنظمة الاجتماعية وتطورها وتعليل أحداث التأريخ وتفسيرها.

هوامش البحث

---

(1) – الناصري، سيد أحمد علي(1982). فن كتابة التأريخ وطرق البحث فيه. القاهرة، ص 9.

(2) – الراوي، فاروق ناصر.(1985). العلوم والمعارف، تدوين التأريخ. حضارة العراق القديم ، ج 2، بغدادا، ص270.

(3) – الجميلي، قصي صبحي(1998). المكتبات في العراق القديم خلال الألف الأول ق.م. رسالة ماجستير غير منشورة ،بغداد.

(4) – أوبنهايم ، ليو(1981). بلاد بين النهرين. ترجمة سعدي فيضي عبد الرزاق، بغداد، ص 175.

(5) – زودن، فون(2003). مدخل إلى حضارات الشرق القديم. ترجمة فاروق اسماعيل، دمشق، ص 51-53.

(6) – سلمان، حسين أحمد (1996). كتابة التأريخ في ضوء النصوص المسمارية. أطروحة دكتوراه غير منشورة، بغداد، ص 235-239.

(7) – بوتس، دانيال (2006). حضارة وادي الرافدين، الأسس المادية. ترجمة كاظم سعد الدين، بغداد ، ص 342-343.

(8) – كونتينيو، جورج (1979). الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور. ترجمة سليم طه التكريتي، بغداد، ص 313.

(9) – زودن، فون(2003). المصدر السابق الذكر، ص 39-40.

(10) – كريمر، صاموئيل نوح. (1973). السومريون، تأريخهم وحضارتهم وخصائصهم. ترجمة، فيصل الوائلي، الكويت، ترجمة ص 46 .

(11) – سلمان، حسين أحمد (1996). المصدر السابق الذكر. ص 47.

(12) – كريمر، صموئيل نوح (1973). المصدر السابق الذكر، ص 47.

(13) – أوبنهايم ، ليو(1981). المصدر السابق الذكر، ص 175.

(14) – كريمر، صموئيل نوح (1973). المصدر السابق الذكر ، ص 45.

(15) – سلمان، حسين أحمد (1996). المصدر السابق الذكر. ص 47.

(16) – كريمر، صموئيل نوح (1958). من ألواح سومر. ترجمة طه باقر، بغداد، ص 61–89،76.

(17) – جورج ، رو(1984). العراق القديم. ترجمة حسين علوان، بغداد، ص 241–242.

(18) – الراوي، فاروق ناصر. (1985).المصدر السابق الذكر، ص 271.

(19) – حنون، نائل(2006). ملحمة كلكامش. دمشق، ص 71–72.

(20) – كونتينيو، جورج (1979). المصدر السابق الذكر، ص 354–355.

(21) – كريمر، صموئيل نوح (1973).المصدر السابق الذكر ، ص48.

(22) – الراوي، فاروق ناصر. (1985).المصدر السابق الذكر، ص 272.

(23) – كريمر، صموئيل نوح (1958). المصدر السابق الذكر، ص 92.

(24) – أوبنهايم ، ليو(1981). المصدر السابق الذكر، ص 184–185.

(25) – كريمر، صموئيل نوح (1973). المصدر السابق الذكر ، ص 49.

(26) – الراوي، فاروق ناصر. (1985).المصدر السابق الذكر، ص 273.

(27) – كريمر، صموئيل نوح(1975). التأريخ يبدأ من سومر. بغداد .

(28) – سلمان، حسين احمد (1996). المصدر السابق الذكر، ص 116.

(29) – كريمر، صموئيل نوح (1958). المصدر السابق الذكر، ص 89.

(30) – باقر، طه(1976). مقدمة في أدب العراق القديم. بغداد.

(31) – زودن، فون(2003). المصدر السابق الذكر، ص 176–177.

(32) – رشيد، فوزي (1985). ترجمات لنصوص سومرية ملكية. بغداد ، ص 61.

(33) - رو، جورج (1984). المصدر السابق الذكر، ص 241-242.

(34) - - زودن، فون (2003). المصدر السابق الذكر، ص177.

(35) - الأحمد، سامي سعيد (1981).العراق القديم. ج 1، بغداد، ص 95.

(36) – كونتينيو،جورج (1979). المصدر السابق الذكر، ص 354.

(37) – سلمان، حسين احمد (1996). المصدر السابق الذكر.ص299.

(38) – كونتينيو، جورج (1979). المصدر السابق الذكر، ص 375.

(39) -- زودن، فون(2003). المصدر السابق الذكر، ص177.

(40) – الراوي، فاروق ناصر. (1985).المصدر السابق الذكر، ص 274.

(40) – الأحمد، سامي سعيد(1981). المصدر السابق الذكر، ص 17-21.

(41) – ساكز، هاري(1979). عظمة بابل. ترجمة عامر سليمان، الموصل، ص 110.

(42) – المصدر نفسه، ص 424- .425.

(43) – الراوي، فاروق ناصر. (1985).المصدر السابق الذكر، ص278.

(44) – سلمان، حسين احمد (1996). المصدر السابق الذكر، ص235.

(45) – الجميلي، قصي صبحي(1998). المصدر السابق الذكر.

(46) – الراوي، فاروق ناصر. (1985).المصدر السابق الذكر، ص 275.

(47) – باقر، طه (1973). مقدمة في حضارة العراق القديم. بغداد، ص 144.

(48) – ساكز، هاري(2008).عظمة آشور. ترجمة خالد أسعد، أحمد غسان، دمشق، ص411.

(49) – باقر، طه(2009).ملحمة كلكامش. بغداد، ص 209.

مصادر البحث

1 -الأحمد، سامي سعيد (1981).العراق القديم. ج 1، بغداد.

2 -أوبنهايم ، ليو(1981). بلاد بين النهرين. ترجمة سعدي فيضي عبد الرزاق، بغداد.

3 -باقر، طه (1973). مقدمة في حضارة العراق القديم. بغداد.

4 -باقر، طه(1976). مقدمة في أدب العراق القديم. بغداد.

5 -باقر، طه(2009).ملحمة كلكامش. بغداد.

6 -بوتس، دانيال (2006). حضارة وادي الرافدين، الأسس المادية. ترجمة كاظم سعد الدين، بغداد.

7 -جورج ، رو(1984). العراق القديم. ترجمة حسين علوان، بغداد.

8 -الجميلي، قصي صبحي(1998). المكتبات في العراق القديم خلال الألف الأول ق.م. رسالة ماجستير غير منشورة، بغداد.

9 -حنون، نائل(2006). ملحمة كلكامش. دمشق.

10 – الراوي، فاروق ناصر.(1985). العلوم والمعارف، تدوين التأريخ. حضارة العراق القديم ، ج 2، بغداد.

11 – رشيد، فوزي (1985). ترجمات لنصوص سومرية ملكية. بغداد.

12 – زودن، فون(2003). مدخل إلى حضارات الشرق القديم. ترجمة فاروق اسماعيل، دمشق.
13 – ساكز، هاري(1979). عظمة بابل. ترجمة عامر سليمان، الموصل.
14 – ساكز، هاري(2008).عظمة آشور. ترجمة خالد أسعد، أحمد غسان، دمشق.
15 – سلمان، حسين احمد (1996). كتابة التأريخ في ضوء النصوص المسمارية. أطروحة دكتوراه غير منشورة، بغداد.
16 – كريمر، صموئيل نوح (1958). من ألواح سومر. ترجمة طه باقر، بغداد.
17 – كريمر، صاموئيل نوح. (1973). السومريون، تأريخهم وحضارتهم وخصائصهم. ترجمة، فيصل الوائلي، الكويت.
18 – كريمر، صموئيل نوح(1975). التأريخ يبدأ من سومر.
19 – كونتينيو، جورج (1979). الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور. ترجمة سليم طه التكريتي، بغداد.
20 – الناصري، سيد أحمد علي(1982). فن كتابة التأريخ وطرق البحث فيه. القاهرة.